الكاتب: **عيدة منصوري**
جامعة المسيلة/ الجزائر

عنوان المقال: **انطباعات من وحي كتاب.. زاوية نظر الجيل اللاحق في حوار الجيل السابق**

البريد الالكتروني: aidamansouri34@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/01/17 **تاريخ القبول**: 2020/03/12 **تاريخ النشر**: 2020/03/31

انطباعات من وحي كتاب..

زاوية نظر الجيل اللاحق في حوار الجيل السابق

Book Inspired Impressions: A Later Generation's Perspective on the Dialogue between the Former Generations

الملخص بالعربية:

سعى مؤرخو الجزائر سواء من جيل ما بعد الثورة أو الجيل الذي تلاه إلى تأسيس نواة للمدرسة التاريخية الجزائرية، مستندين في ذلك إلى المصادر بأنواعها، محاولين بذلك إماطة اللثام عن زوايا مظلمة وخفية في تاريخ أمتنا المجيدة. ولا غرو أن أي مدرسة تبنى على تراكم الأفكار ومنهج يؤطر موضوعاتها، ورؤية تحكمها، ولعل أهم وسيلة لبناء المدرسة هي التواصل بين أجيال المؤرخين، بيد أن عملية التواصل لا تتأتى إلا بالجلوس إلى شيخ كما كان يلقب في العصور الوسطى، حتى أنهم طعنوا في علم من لا شيخ له؛ نظرا لما للشيخ من دور في صقل فكر الطالب، وإحداث التراكم والتجاوز. إلا أن سبل وطرق الحوار قد تغيرت مع التطور الذي شهده العالم في عصرنا الراهن، ومن ذلك ما وقفنا عليه من صيغ التواصل بين أستاذنا لخضر بولطيف وشيخه الأستاذ أبو القاسم سعد الله –رحمه الله-، إذ أضحى للوسائط الالكترونية دور كبير في تيسير مجالات التواصل بين جيلين، وهو ما لفت انتباهي في قراءة تقديم الشيخ لكتاب الأستاذ، ثم في إيراد الأستاذ لحواره مع الشيخ.

كلمات مفتاحية: الشيخ، الأستاذ، الحوار، الرسالة، اللغة، المنهج، المدرسة.

Abstract :

Algerian historians, including the post-revolution generation and the one which followed, sought to establish the nucleus of the Algerian historical school by relying on different types of resources in order to uncover the dark and hidden areas in the history of our glorious Nation. It is no surprise that the establishment

of any school is realised by the accumulation of ideas, in addition to a method that frames its themes, and a vision which directs it. The most significant tool to establish the school is probably the communication between the generations of historians which can only take place by sitting with a 'Sheikh' as he was called in the Middle Ages. Due to the role played by the latter in refining the student's thinking, in creating accumulation and in authorisation, the scientific knowledge of those who did not have a Sheikh was challenged. With the development the world has witnessed nowadays, however, the ways and the methods of dialogue have changed. Among those, we have dealt with the modes of communication deployed between our teacher Lakhdar Boultif and his Sheikh Abou El Kacem Saâdallah – may God's mercy be upon him. We can say that the electronic media have gained a big role in facilitating the communication between the two generations, and this is what drew our attention in reading the preface authored by the Sheikh in the teacher's book, and also in what the teacher mentioned about the dialogue he had with the Sheikh.

Key words: teacher ; dialogue ; letter ; language ; method ; school.

تمهيد:

بعد القراءة التي لا يمكنني وصفها بالدقيقة، نظرا لفهمي السطحي للأمور، والبسيط الذي لم يرق بعد إلى مستوى قراءة ما بين الأسطر، أو فهم خبايا لغة جيلين قد ملكا من آليات الحفر، والدراسة، والتراكم المعرفي، والعلمي، واللغوي –أهلتهما لوضع لبنات تأسيس المدرسة التاريخية بالجزائر- ما لم أظفر به بعد كباحثة لا تزال في طور التكوين، ولم تلفظها رحم الجامعة إلا قبل سنتين.

لذلك أستسمح أستاذيَّ –لخضر بولطيف وأبو القاسم سعد الله- إن لم تكن هذه القراءة من الإجادة والفائدة بمكان، لعدم اتخاذها منحى نقديا يفيد في البناء، بيد أنني آثرت المحاولة، على أن ألتزم الحياد لعلي أسهم فيما تصبوان إليه من تواصل بين أجيال طلبة التاريخ يوما ما، مركزة في ذلك على مجموعة من الأسئلة: ما هي آليات التواصل بين الجيلين؟ وهل اتخذت طابعا تقليديا من حيث الوسيلة أم أنها اتسمت بحداثتها أم أنها مازجت بين

الأمرين؟ وما مدى فاعلية هذه الوسائل والآليات؟ وكيف كان منطوق الخطاب بين الجيلين؟ وما هي مميزاته؟ فيما تتجلى أهمية الحوار بين جيلين؟.

1- آليات التواصل:

مما استحوذ على اهتمامي من خلال قراءة مقالة الأستاذ "شيوخ وحفدة"، هو النظر في حلقات التواصل بين جيلين –جيل الشيخ والأستاذ- وقد اتخذت عبر مسارها عدة أشكال، وهي:

أ- شكل القراءة للشيخ:

لاغرو بأن القراءة أمر هام لمعرفة الكاتب وتجاوزه، على الرغم من أنني لا أدري إن كان أستاذي الفاضل يسعى لذلك في تلك الفترة، من خلال اقتنائه لكتب أبو القاسم سعد الله أم لا، لكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل كل من نقرأ له يسترعي انتباهنا، ويؤثر على تفكيرنا بالضرورة؟ طبعا لا؛ وهذا ما اعترف به الأستاذ لخضر بولطيف، إذ أن كتب شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله لم تثر اهتمامه نظرا لعدم انخراطه يومها -بعد- ضمن الدراسات الأكاديمية.

ومما لاشك فيه أن لكل شيء بداية، وبداية اهتمام الأستاذ لخضر بولطيف بفكر الشيخ أبو القاسم سعد الله، كان منبعثه من مشاهدة برنامج تلفزيوني في مطلع التسعينات، استضيف فيه الشيخ، والذي سمح للأستاذ بالوقوف من خلاله على ثبات الشيخ على قناعاته، والدفاع عن أفكاره، على الرغم من كون أسئلة البرنامج موجهة. ولئن كانت معرفتي محدودة لأستاذي الفاضل لخضر بولطيف، إلا أنني أرجح أنه قد تأثر بالشيخ أبو القاسم سعد الله من هذا الباب، فقد عهدته شخصا مناضلا ثابتا على مواقفه، كما لا يفوتنا أن ننوه بدور السمعي البصري في كشف شخصية الكاتب وميوله وقناعاته.

ب- شكل اللقاءات وإهداء الأعمال:

اكتست بؤر أو حلقات اللقاء دورا هاما في التواصل بين الجيلين، فكانت بذلك الملتقيات همزة الوصل الفعلية بين الشيخ والأستاذ، وطعمت أواصر التعارف بين الطرفين التفاتة إهداء الأعمال، وهذا ما استلهمته من قول الأستاذ: «وستظل ذكرى عزيزة على نفسي يوم أقبلت عليه أواخر سنة 2006م، بمناسبة انعقاد الملتقى الدولي حول: "القائد الفاتح عقبة

بن نافع الفهري"، ببسكرة، فأهديته باكورة أعمالي، كتابي: الفقيه والسياسة في الغرب الإسلامي، كما أتيحت لي فرصة ثانية للقائه، بعدها بنحو خمس سنوات، بمدينة تلمسان، بمناسبة انعقاد الملتقى الدولي حول: "تاريخ حاضرة تلمسان ونواحيها"؛ في إطار احتفالية تلمسان عاصمة للثقافة الإسلامية... ولم أشأ أن أفوت هذه الفرصة –أيضا- دون إهدائه كتابي الثاني: "فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي"[1].

لا مراء في أن الحراك الفكري في الجزائر متباطئ الوتيرة، وهذا ما خلصت إليه من خلال تسجيل التباعد بين اللقائين اللذين جمعا الشيخ بالأستاذ، مقتصرا على الملتقيات المناسباتية، فلكم نحن بحاجة إلى فضاء فكري أوسع وأكثر تنظيما؛ كالصالونات الأدبية، والأمسيات الشعرية الأدبية، والمقاهي الأدبية، والأيام الدراسية المكثفة؛ فضاءات القراءة والنقد لبعضنا البعض، ليتم التلاقح والتواصل بين الأجيال، كما نحن بحاجة إلى تغير ذهنية المجتمع ككل، للوصول إلى الهدف المنشود.

ولئن كنت قد فهمت مقصد أستاذي من وراء إهدائه أعماله للشيخ أبو القاسم سعد الله، فهو يصبو إلى الظفر بتلك النظرة الناقدة الفاحصة المثمنة لعمله، ممن قطعوا باعا وشوطا في الأبحاث الأكاديمية، لتكون له دافعا وإضافة.

ج- شكل الملاحظة والقراءة:

لا جرم أن ذهنية خريجي جامعاتنا ومثقفينا قد انطبعت على أنه لا يثمر جهد الباحث ثمارا يانعة جيدة إلا لدى من اشتعل رأسه شيبا، وانحنت قامته هرما؛ وهذا ما يعززه قول أبو القاسم سعد الله عن الأستاذ بولطيف حينما سلمه هديته الثانية: «حين أهداني كتابه: فقهاء المالكية، منذ عام ونصف، استلمته بيد الشكر دون أن أقرأ حيثياته، وعبارات الإهداء، لأننا كنا نحضر مناسبة عامة فيها حركة وضجيج، فاكتفيت بقراءة العنوان ثم رفعت رأسي إلى صاحب الإهداء لأهنئه على صدور الكتاب، ظانا أنه مثقف متقدم العمر، فإذا هو شاب لا يكاد يدخل حرم الكهولة...»[2].

والجدير بالإشارة أن قراءة عنوان الكتاب وحدها كانت محل تنويه الأستاذ أبو القاسم سعد الله، إذ حكم على صاحبه بالفكر النير والمجهود المضني.

ثم ليتعرف الشيخ على ذهنية مهديه الكتاب، عند جلوسه لقراءته، وهو ما يجسده قوله: «وقد أتيحت لي فرصة التأمل في الكتاب ومحتوياته، ومنهج صاحبه، ونوع تفكيره، فبدا لي

كتابا يعبر عن ذهنية صافية، وقدرة عالية على علاج موضوع شائك؛ مثل العلاقة بين سلطة الموحدين وسلطة فقهاء المالكية»[3]، وهذه المقولة تبرز أهمية القراءة في معرفة الكاتب وميولاته، وتوجهاته، وملمحه الفكري، ومنهجه، ولعله الجانب الذي نحن بحاجة إليه للرقي بمستوانا المعرفي، في مرحلة يمكن أن أطلق عليها -إن صح التعبير- مرحلة تلاقح الأفكار.

د- شكل التواصل عن طريق الرسائل عبر البريد الإلكتروني وطلب الإجازة:

على الأرجح أن الأستاذ بولطيف قد شد انتباهه خطاب الأستاذ أبو القاسم سعد الله ضمن الملتقى المنعقد بتلمسان حول :"تاريخ حاضرة تلمسان ونواحيها": «وكان مما استمعنا إليه في محاضرته الافتتاحية، ما عبر عنه في سياق الأسى أو التعب عن حواضر طاردة لعلمائها، وعلماء أشقياء بعلمهم، فيما لا يبعد عن إسقاط وقائع الماضي على أحداث الحاضر»[4]. وقد وقفت على فقرة ضمن مداخلة الأستاذ المقدمة في تلك المناسبة تعزز طرحي هذا، وهي قوله: «ولربما كان بنا حريا بنا أن نتساءل فيما إذا كان انصراف والده –محمد بن سليمان اليفرني الكومي الندرومي- إلى المشرق رهن دواع شخصية عارضة، غير ذات صلة بمسألة الولاء السياسي، إذ في حالات مماثلة رفض بعض خطباء وقضاة العهد البائد التعاون مع الموحدين؛ شأن خطيب بجاية أبي محمد بن الخرّاط (ت 581هـ/1185م)، أو قاضي مرسية أبي بكر بن أبي حمزة (ت 599هـ/1202م)، ولئن كان عدد من هؤلاء آثر المكوث ببلده متحمّلا ضروبا من الإيذاء والتضييق، فإن آخرين فضلوا المغادرة نحو المشرق»[5]. فلقد اشترك الشيخ والأستاذ في حمل هم العالم في وطنه، وما يعترضه في سبيل البحث، في غياهب ظلمات إهمال المشروع من طرف السلطة السياسية الحاكمة، وحزازات امتداداتها الإدارية بالجامعة.

وعلى إثر اتحاد الطموح فقد عزم الأستاذ بولطيف على أن يحظى بإجازة شيخه وإكرامه بتحرير تصدير لمجموعة من الأزهار التي قطفها من عدد من الملتقيات الوطنية والدولية، وعنونها بـ"مسارات حضارية في تاريخ الغرب الإسلامي"، على الرغم من توجسه، نظرا لارتباطات الشيخ الكثيرة، إلا أنه قد تشجع، وبدأ التواصل مع الأستاذ أبو القاسم سعد الله عن طريق بريده الإلكتروني، وكانت بذلك أول رسالة ممهورة بتاريخ: 16 جوان 2012م[6].

ولتحظى رسالة الأستاذ برد سريع بعد يومين من إرسالها من قبل فضيلة الشيخ أبو القاسم سعد الله، فتثلج صدر الأستاذ بولطيف بموافقة مبدئية على طلبه، تلتها في اليوم نفسه رسالة شكر وعرفان ملؤها السرور والحبور، ثم لتعرف الرسائل بين الطرفين منحى آخر

بعدما عاجلت دار النشر الأستاذ بولطيف من أجل التصدير، فيبادر بإرسال رسالة تهنئة بالعيد للشيخ، والاستعجال بموافاته بالتصدير، مرفقة بالأسباب، بتاريخ: 06 أوت 2012م، وكان طابع رسالة أبو القاسم في الرد نقديا لمضمون الكتاب، مستفسرا عن بعض القضايا، بتاريخ: 18 أوت 2012م.

ثم ليرد عليه الأستاذ بولطيف بالتعليل في اليوم نفسه[7]، وليطالعه الأستاذ أبو القاسم سعد الله بالتصدير في اليوم الموالي[8]، لكن عارضا حال دون رده على الأستاذ أبو القاسم سعد الله، وهو مرض الوالد ولزومه سرير المستشفى، ليتأجل إلى تاريخ: 27 أوت 2012م، حيث عبر فيها الأستاذ عن شكره وامتنانه، وشعوره بمسؤولية تلك الكلمات المدونة بالتصدير[9]، ليعاوده الأستاذ أبو القاسم سعد الله برسالة ملؤها الثناء والتثمين للعمل في اليوم ذاته[10].

استأنف الحوار بين الرجلين بعد حوالي أربعة أشهر، على خلفية مطالبة صاحب دار النشر بتعديل عنوان الكتاب من "مسارات حضارية في تاريخ الغرب الإسلامي" إلى "الفقه والتاريخ في الغرب الإسلامي"، نظرا لقناعة الأستاذ بولطيف من أن المصدّر شريك للمؤلف، وكان من رأي الشيخ أنه لو تم تعديل العنوان إلى: "دراسات في الفقه والتاريخ من الغرب الإسلامي"[11].

بيد أن الرياح تسير بما لا تشتهي السفن، فقد أخرج صاحب دار النشر الكتاب بالعنوان الذي اقترحه، وعلى ذلك أرسل الشيخ أبو القاسم سعد الله رسالة يثني فيها على مبادرة الأستاذ بولطيف بإخباره عن صدور الكتاب بالعنوان الذي اختاره صاحب دار النشر، وهنأه على ذلك مع طلب نسخة من الكتاب، وكان ذلك بتاريخ: 09 أكتوبر 2013م، ليرد الأستاذ بولطيف على الرسالة بتاريخ: 13 أكتوبر 2013م، أسى على مرض شيخه، وواعدا بموافاته بنسخة، حال ظفره بنسخ الكتاب[12].

واقع الحال أنني عندما قرأت فحوى هذه الرسائل، وقصة ولادة التصدير والكتاب، قد أيقظت في نفسي ذلك الحنين إلى ما أطالعه عن أيام ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، حيث الحراك الفكري على أشده، والإجازة العلمية لجهابذة العلماء وأجلتهم، والتي كنت أرنو إليها بعين الخيال، وأحكم في قراراة نفسي بعدم وجود مثله في زمننا الحاضر، وبالأخص في الجامعات الجزائرية، بيد أن الحلم قد تحول إلى حقيقة، وجعل مني أنشد استمرار مثل هذه الحوارات وكثرتها، لننعم بسعادة فكرية ملؤها العطاء والتواصل بين الأجيال، نحو مدرسة تاريخية جزائرية يبنيها أبناؤها حجرا حجرا، ويهيكلها شيوخها مخططا مخططا، تضاهي في ذلك مدرسة الحوليات بفرنسا[13].

2- وسائل الاتصال:

بما أنني قد تناولت الآليات بنوع من التفصيل، شملت بطريقة ضمنية وسائل الاتصال بين الجيلين، فقد آثرت إفرادها الآن، لكن دون إسهاب، وهي:

أ- الكتاب:

تم الحصول عليه من طرف الأستاذ بولطيف عن طريق اقتناء كل مستجد ينشره الأستاذ أبو القاسم سعد الله، بينما استرعى انتباه الشيخ أبو القاسم سعد الله قلم الأستاذ بولطيف المعطاء والمجيد عن طريق إهداء الأستاذ لبواكير أعماله لشيخه، رغبة منه في خلق حلقة تواصل بين جيلين.

ب- البرنامج التلفزيوني:

كان لهذا البث دور كبير في التعرف على الشيخ، وفهم منازعه وتوجهاته، وترجمة مواقفه الثابتة، ولعل الحوار قد كان مرآة عاكسة لشخص الشيخ أبو القاسم سعد الله أكثر من كتبه في تلك الفترة.

ج- اللقاء والتعارف:

تمثل ذلك في ملتقيين الأول بمدينة بسكرة، والثاني بمدينة تلمسان، وكان الملتقى الأول يمثل اللقاء الأول بالأستاذ أبو القاسم سعد الله، لكن الملتقى الثاني كان له أثر كبير في نفس الأستاذ بولطيف من خلال ما أبداه الأستاذ أبو القاسم سعد الله من إطراء وتثمين للكتاب.

د- الأنترنت وتبادل الرسائل الإلكترونية:

إن الملفت للنظر هو منطق اللغة الذي حكم تلك الرسائل، والتي كانت من الجودة بمرتبة عالية، لفتت انتباه الشيخ أبو القاسم سعد الله، كميزة متفردة في شخص الأستاذ بولطيف، فاق بها أترابه من أساتذة الجامعات الجزائرية. وقد سبقنا المفكر عبد الله الغذامي في التنويه وإبراز دور اللغة وفعاليتها في قوله: «وخير وسيلة للنظر في حركة النص الأدبي، وسبل تحرره، هي الانطلاق من مصدره اللغوي، حيث كان مقولة لغوية أسقطت في إطار نظام الاتصال اللفظي البشري، كما يشخصها رومان ياكبسون في (نظرية الاتصال) وعناصرها الستة، التي تغطي كافة وظائف اللغة، بما فيها الوظيفة الأدبية»[14].

والملاحظ على رسائل الأستاذ بولطيف أن الوظيفة الأدبية ماثلة، والمقصود بالوظيفة الأدبية حسب عبد الله الغذامي هو: «تحول فني يحدث للقول ينقله من الاستعمال النفعي إلى الأثر الجمالي»[15].

ولا غرو في أن قلم الأستاذ بولطيف حافل بتلك المسحة الجمالية التي تجعل قارئه متلهفا لمطالعة جديد ما يكتب، وحتى قراءة كتبه مرات ومرات، فكل قراءة تزيد من جمالية النص، واكتشاف ما يصبو كاتبه الوصول إليه، خصوصا عندما يفقد المرء حماسه في بعض الأحايين، وتهن عزيمته، فيتناول أحد كتب الأستاذ بولطيف أو أحد رسائله، فيجد نفسه يمتلئ طموحا، وتتولد لديه طاقة وشغف للبحث.

علاوة على ذلك فإنه يستشف نوعا من الراحة والاطمئنان النفسي خاصة في رسائله وإهداءاته، فاللغة إذن مصدر إلهام قلَّ من أدرك قيمته، ولكم نحن بحاجة إلى أفذاذ من أمثال الأستاذ بولطيف ليأخذوا بأيدينا، لنرتقي سلم المعرفة.

3- منطوق الخطاب بين الجيلين ومميزاته:

أ- إعلاء المقام:

جسد الخطاب الموجه من طرف الأستاذ بولطيف للشيخ أبو القاسم سعد الله في رسائله ألفاظا وعبارات تعلي مقام وشأن المرسل إليه منها: فضيلة الباحث القدير الأستاذ الدكتور...، وفي انتظار ردكم تفضلوا سيدي بقبول فائق آيات التقدير والاحترام، محبكم؛ محل بعض تلامذتكم...[16]، أستاذي العزيز الباحث الألمعي... تحية إكبار وتقدير... عسى أن تعودوا إلينا كدأبكم دائما بثمرة جديدة من ثمرات فكركم النير، وأثر طيب من آثار قلمكم المعطاء[17].

ب- الاستشارة والحوار:

عرف الخطاب عبر مراحله استشارة في بعض الأمور، ومثال ذلك قول الأستاذ بولطيف: «ثم إننا استأنفنا مراسلاتنا بعد نحو أربعة أشهر على خلفية اقتراح صاحب دار النشر تعديلا على عنوان الكتاب، من "مسارات حضارية في تاريخ الغرب الإسلامي"، إلى "الفقه والتاريخ في الغرب الإسلامي"، لاعتبارات تتصل –غالبا- بمنطق الرواج التجاري. وقد استشرت الأستاذ في ذلك مقتنعا أن المصدّر شريك للمؤلف، عدا أنه أبدى بعض تحفظ بشأن الصياغة

المقترحة، وكان من رأيه أنه لو عدلنا إلى عنوان: "دراسات في الفقه والتاريخ من الغرب الإسلامي»[18].

ج- التواضع:

غلب على الخطاب سمت التواضع بين الجيلين، ومن أدلة ذلك ما صرّح به الأستاذ أبو القاسم سعد الله في رسالته الاستفسارية عن نقطتين: «الأولى هي أنك صورت الموحدين – كما فهمت- من دعاة الحرب على الرأي. وهذا –كما فهمت أيضا- مخالف لما هو مروي عنهم... فهل أنا على خطأ في فهم رسالتك؟»[19].

والمثير للانتباه أن رسالة الرد على النقطة الثانية قد حملت تواضع المؤلف أكثر من نشدان البحث المتكامل بالتعديل، وذلك في قوله: «... إلا أنني اقتنعت فيما بعد، وهو ما تداركته في مداخلة لي في مناسبة مضت وشيكا، أن آثار مرحلة الرباط كانت لها امتدادات وانعكاسات على حركة الفتح، ليس من الحري إغفالها، عدا أن ما أخذت به نفسي من ترك أبحاث الكتاب على حالها يوم أنجزت، كأنما لتعكس بدورها مرحلة من حياة الباحث قابلة للتقويم والتجاوز، وهو ما حدا بي إلى الإعراض عن إدراج عدد من التعديلات التي تراءت لي في هذا المقال وغيره، مما يشكل محاور الكتاب الجديد»[20].

وقد بلغت أكاديمية الأستاذ أبو القاسم سعد الله أن أحاطت بعين التواضع حتى عنوان المؤلف عندما أقترح تعديله من طرف صاحب دار النشر قوله: «وكان من رأيه أنه لو عدَلنا إلى عنوان: "دراسات في الفقه والتاريخ من الغرب الإسلامي"؛ كونه –بحسبه- "فيه تواضع وعلمية، وتعبير أكثر دقة"»[21].

د- التثمين:

لا مراء في أن نبع قرار الأستاذ بولطيف لطلب تصدير الأستاذ أبو القاسم سعد الله هو التثمين، عندما أهداه كتابه: "فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية"، وهذا ما خلصت إليه من خلال رسالة الأستاذ بولطيف الأولى، والتصدير الذي جاء فيه –بلسان الشيخ سعد الله-: «فقلت في نفسي كيف استطاع شاب كمؤلفه أن يصنع كتابا كالذي بين يدي، بينما أساتذة بلغوا شأنا عاليا في العلم والتدريس لم ينتجوا مثله في رحلتهم عبر تاريخ المغرب والأندلس. واعترفت أن الموضوع ليس سهلا، وأنه عالج فيه مذاهب وأفكارا ومناهج سادت المنطقة خلال عدة دول ومحطات إيديولوجية، في زمن انتقلت فيه المنطقة من حالة الركود

الحضاري إلى التخلف العقلي، والحالة الأخيرة هي التي ما زلنا نعيش في محنتها حسب بعض المنظرين (ابن نبي، مثلا)»[22].

وليضمن الشيخ أبو القاسم سعد الله تصديره درر ألفاظه في لآلئ طالبه الموسومة بـ"مسارات حضارية" في قوله: «إن الأبحاث التي ضمتها "مسارات حضارية"، تتميز بالتوثيق الغني، والأسلوب الجزل، والبيان الرفيع، واللغة الواضحة التي لم نعد نقرأها أو نكتب بها في رحاب الجامعات، حيث يكتفي الكاتب في الأدب والعلوم الإنسانية بتوصيل فكرته بلغة مدرسية ساذجة، فيها نقص التكون، والتأثر بالترجمات، ولغة الأنترنت... لا أكتم القارئ حين أصرح له بأنني قلما صدرت كتابا مثل كتاب "مسارات حضارية"، الذي جمع بين دقة المنهج، وعمق التحليل، وقوة اللغة، وجمال الأسلوب، والقدرة على التوثيق...»[23].

ولا يخفى على كل من قرأ أول رسالة تواصل بين الأستاذ بولطيف وشيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله، إشادة الأستاذ بما يصبو إليه الشيخ، حيث يكتب إليه قائلا: «وإذ ليس يعزب عني ما أنتم في خضمه من الاعتكاف على استكمال حلقة العصر الوسيط من مشروعكم الكبير "تاريخ الجزائر الثقافي"، فإنني أرجو ألا يحول دون إجالة النظر في أوراق الكتاب الذي أعتزم مطالعتكم به عن طريق بعض الزملاء ممن يحظون بإشرافكم، عسى أن تقرأوا بين ثنايا حروفه نبض وجدان يستهدي معالم سيرتكم العطرة، في متابعة مسيرة مؤرخ يستحفه الطموح، ويؤطره الالتزام»[24].

هـ- النقد:

يذهب بعض الباحثين إلى أن النصوص التي لا تمارس عليها عملية النقد نصوص ميتة، فرهنوا بذلك حياة النص بالنقد، وقد حظي عمل الأستاذ بولطيف بنقد تجلى في نقطتين ضمن رسالة أرسلها إليه الشيخ أبو القاسم سعد الله جاء فيها:

«سي بولطيف السلام عليكم وبعد.

رغم رمضان وحرارة الجو غير العادية وطول النهار فقد وفق الله وصغت مسودة التصدير، ولكن قبل ذلك وددت أن أرجع إليك في نقطة أراها هامة وأخرى أراها في درجة ثانية.

الأولى، هي أنك صوّرت الموحدين –كما فهمت- من دعاة الحرب على الرأي. وهذا –كما فهمت أيضا- مخالف لما هو مرويّ عنهم. فهم أهل الرأي وإعمال النظر في النصوص ودعاة التأمل والتأويل فيها والبعد عن التجسيم.. وهذا ما اتخذوه حجة ضد المرابطين أهل النقل والفروع

وفهم النصوص على ظاهرها حسب مذهب الإمام مالك. وأنت العليم بأن أهل الرأي هم الحنفية والمعتزلة والموحدون ومن شاكلهم. فهل أنا على خطأ في فهم رسالتك؟.

النقطة الثانية هي أن بحثك عن الفاتح عقبة بن نافع تركته مفتوحا، ولم تكمل الحديث عن تركته الجهادية، هل قصدت إلى ذلك قصدا؟...»[25].

كما حظي بنقد حفظه تصدير كتاب "مسارات حضارية"، في قوله: «ليس لي ما تمنيته على صاحب "المسارات" إلا التخفيف من طول العنوان، وإعادة النظر كرتين في نسبة القول "بالرأي" لعلماء المرابطين، وفي إطلاق وصف "حضارية" للمسارات، لأنها قد تكون نشازا في المرحلة التي عالج فيها أكثر من بحث، وهي المرحلة التي توصف عادة بأنها مرحلة تخلف. وإذا كان هناك ما يشير إلى حضارة أو تطور حضاري، ففي الإطار العام للحضارة الإسلامية التي كانت تعاني أيضا من التخلف»[26].

4- أهمية الحوار بين الجيلين:

صفوة ما وصلت إليه أن أهمية الحوار قد سبقنا إلى تجسيدها الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (ت 204هـ/820م) في بيتين من الشعر، هما[27]:

أخي لن تنال العلم إلا بستة سأنبيك عن تفصيلها ببيان

ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة وصحبة أستاذ وطول زمان

أما من منظوري الخاص فإن الحوار يكتسي أهمية كبرى ويستحق أن تعقد في نطاقه أيام دراسية مكثفة، للتنويه بأهمية وآليات التواصل بين الأجيال، لأجل أن نخرج من الركود الثقافي الذي أشار إليه ابن خلدون، ونحن نرزح تحت نيره متغافلين عن أدوارنا وواجباتنا، متكاسلين أو متواكلين. لكن إلى متى؟ وإلى ما نتكاسل؟ ومن سيكون المنقذ يا ترى؟ ألم يحن بعد زمن الاقتداء والاحتذاء بخطى ذوي النهى؟ لكن لن يدركها إلا بعيد عن هوى النفس والدنيا نحرير.

وهذا ما عرضه أستاذنا الفاضل في مقدمة كتابه "الفقه والتاريخ"، وقد آثرت أن أورد دواعي تأليفه لكتابه كما وصفها، لأنها أكثر بلاغة وتأثيرا مما قد أكتب:

«ولم يكن خطر لي أن أعمد إلى جمع هذه المقالات في كتاب، رغم إيماني بأهمية جمع المفترق، ونظم المنفرط، خلا لاعتبارين وجيهين:

– تطلعي إلى الإسهام في إثراء المدوّنة التاريخية في بلادنا، التي لطالما أُنحي باللائمة على ذويها من أولي النُّهى وحملة الأقلام، لتقصيرهم بهذا الشأن، حتى لكاد أن يضحى تاريخ الجزائر صفحة منتزعة من ديوان التاريخ، ونتاج مؤرخيها سفرا عزيزا، تهفو إليه الأفئدة، ولا تطاله الأيدي.

– ما عاينته من تداول تلامذتي من طلبة الدراسات العليا لهذه المقالات، وقد ألفوا فيها نموذجا تطبيقيا لإعمال آليات المنهج التاريخي من رصد واستقراء، ونقد وتمحيص، ووصف ومقارنة، وتحليل وتعليل، وتخريج واستنباط، مما كان يعنيهم الدُّربة عليه، والتمرّس به في أبحاثهم ومذكراتهم[28].

ولا يسعنا في ختام هذه المحاولة إلا أن ندوّن إجابة الأسئلة التي وضعت مسار هذه التجربة البسيطة:

– من الملاحظ أن آليات الحوار بين الجيلين مازجت بين الآليات والوسائل التقليدية منها والحداثية، وقد اتسمت بفاعليتها لولا أن بعضها يحكمه منطق الزمن ورجال السلطة.

– اتسام منطوق الخطاب بالثراء والمنهج واللغة البليغة، وهذا ما نحتاج إليه ضمن المسار المعرفي.

– تجلي أهمية الحوار بين جيلين في إبراز آليات وطرق ووسائل الربط بين الأجيال.

بيد أن القارئ قد يتساءل عن وجه الاستفادة من هذه الدراسة في التاريخ؟ لا غرو أن أي مدرسة تاريخية تبنى على التراكم المعرفي على خلفية منهج ورؤية يؤطرانها، وهذا لا يتأتى إلا بالحوار بين أجيال المؤرخين، وهو ما تعكسه خطى الأستاذ لخضر بولطيف من خلال حواره مع شيخ المؤرخين من جهة، ومع طلبته الناشئين من جهة ثانية، في سبيل تجسيد مشروع مدرسة تاريخية جزائرية.

الهوامش:

[1]- لخضر بولطيف: "**شيوخ وحفدة.. حكاية كتاب، وتواصل أجيال**"، مجلة عصور الجديدة، تصدر عن مختبر البحث التاريخي: تاريخ الجزائر، جامعة وهران، الجزائر، ع13، 1435هـ/2014م، ص354.

[2]- المستند نفسه، ص354.

[3]- المستند نفسه، ص354.

[4]- المستند نفسه، ص354.

[5]- لخضر بولطيف: **الفقه والتاريخ في الغرب الإسلامي -مقاربات منهجية-**، الجزائر: منشورات مخبر البحث التاريخي: مصادر وتراجم، جامعة وهران، الجزائر، 1435هـ/2014م، ص117.

[6]- لخضر بولطيف: "**شيوخ وحفدة**"، ص355.

[7]- المستند نفسه، ص 358-359-360.

[8]- المستند نفسه، ص360.

[9]- المستند نفسه، ص360-361.

[10]- المستند نفسه، ص361.

[11]- المستند نفسه، ص362.

[12]- المستند نفسه، ص362-363.

[13]- محمد حبيدة: **من أجل تاريخ إشكالي**، ط1، القنيطرة، المغرب: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1425هـ/2004م، ص67-84.

[14]- عبد الله محمد الغذامي: **الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية**، ط4، مصر: مطابع الهيئة المصرية، 1998م، ص08-09.

[15]- المستند نفسه، ص10.

[16]- لخضر بولطيف: "**شيوخ وحفدة**"، ص355.

[17]- المستند نفسه، ص356.

[18]- المستند نفسه، ص361-362.

[19]- المستند نفسه، ص357-358.

[20]- المستند نفسه، ص359.

[21]- المستند نفسه، ص362.

[22]- لخضر بولطيف: **الفقه والتاريخ**، ص05.

[23]- المستند نفسه، ص07-08.

[24]- لخضر بولطيف: "**شيوخ وحفدة**"، ص355.

[25]- المستند نفسه، ص357-358.

[26]-لخضر بولطيف: **الفقه والتاريخ**، ص07.

[27]- أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي: **ديوان الشافعي**، الجزائر: بيت الحكمة، 1431هـ/2010م، ص78.

[28]-لخضر بولطيف: **الفقه والتاريخ**، ص11.